الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهلاليين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد و تحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقى الخارجى والصفات الجسمية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بصدد تصنيفهم للسلالات البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للتفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة[١]، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر[٢]، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس[٣] الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه[٤] أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الانتروبولوچى الى الاستعانة بتحليل

(١) Leucodermi — بيض البشرة
Xanthodermi — سود البشرة
Melanodermi — صفر البشرة
يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد فى أعماق البشرة

(٢) Leiottrichy — الشعر المستقيم
Cymotrichy — الشعر الموج
Ulotrichy — الشعر المفلفل

(٣) Caphalic Index
Dolicho Cephalic — الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥
Meso Cephalic — الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠
Brachy Cephalic — الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠

(٤) Prognathism and Orthognathism.

الدم ومعرفة فصائله للتعرف على السلالة .

هذا ولم يعتمد علماء الانتروبولوچى على صنف واحد من تلك المميزات الجسمية فى تصنيف السلالات البشرية ، وانما اعتمدوا على تركيب أو جملة عدد منها . ومن هنا تباينت وتعددت تقسيماتهم . فنجد لينـاؤس وهو أول من حاول تقسيم الاجناس تقسيما علميا على أساس جغرافى يقسم البشرية الى ثلاثة أجناس . بينما قسمها كل من «سانتهلير وليبنتز » و « كانت » الى أربعة ، وصنفها بلومنباخ الى خمسة اعتمادا على لون البشرة وتقاطيع الوجه وشـكل الشعر والرأس وأخذ يتزايد عـدد هذه التصنيفات ، فقسمها « يافون » الى ستة أجناس ، وصنفها « برتشارد » الى سبعة ، و «أجاسيز» الى ثمانية . ثم قفزت على يد كل من »بيكرنج» وهايكل وموللر[1] Pikering ; Haekel ; Muller الى احدى عشر ، وبورى[2] Bory St. Vincent الى خمسة عشر ، وتوبينارد[3] Topinard الى ثمانية عشر ، ومورتن[4] Mortan الى اثنين وثلاثين .

وصنفها روجرى[5] Ruggeri فى ثمانية أجناس وثلاثة وأربعين فرعا ، بينما اعتبر هادن[6] C. Haddon الاجناس الأصلية ثلاثة منقسمة الى ستة وثلاثين فرعا ، وقسمها كراوفورد[7] Crawford الى اثنين وستين مجموعة بشرية . بل وصـل تقسيم هـذه المجموعات الى مائة وعشرين فرعا فى مؤتمر عقد للدراسات الانتروبولوچية ، وأخيرا زاد العالم الامريكى جليدون[8] George R. Gliddon عدد فروع العائلة البشرية الى مائة وخمسين فرعا .

واختلاف علماء الأجناس على هذا الوجه يثير الشك فى صحة الرأى القائل بتعدد أجناس البشر أصلا ، كما أن الاختلافات الظاهرة بين اصـناف الجنس البشرى لا تقوم على قواعد ثابتة أصيلة .

هذا فضـلا عن أن هـذه التصـنيفات لا تنطبق وواقـع الأجناس أو الفروع

(١) Pickering, Haeckel, Muller
(٢) Bory St. Vincent
(٣) Topinard
(٤) Mortan
(٥) G. Ruggeri
(٦) Grawford
(٧) Haddon
(٨) G.R. Glidden : Origin & Race
C. Weatherford : Race Relations

السلالية ، فيندر أن تتمثل المقاييس الجسمية فى فرد أو فى جماعـة ما تمثلا كامـلا بشكل نموذجى حتى يسهل معه تطبيق هـذه المقاييس ورد الأفراد الى أصولهـا السلالية ، أو نسبتها الى أجناسها الأصلية .

وكان من المحتمل أن يكون الأمر أبسط من ذلك لو أن كل سلالة التزمت الاستقرار فى بيئتها التى اكسبتها صفاتها الفيزيقية المميزة لها ، ولكن الذى حدث فعلا أن هجرة الاجناس من بيئتها تحت ظروف طبيعية وبيئية واجتماعية ـ اقتصاديـة كانت او سياسية ، قد مكنها منذ فجر الانسانية من الاختلاط والامتزاج بعضها بالبعض الآخر فأصبح من العسير أن نعثر على جنس نقى يحتفظ بخصائصه الأصلية ، وبالتـالى فان محاولة تشخيص الجنس أو السلالة غدت من باب الأفكار الذهنية التى تجردت عن تجسداتها الفردية ، وأطلقت للتقريب والتعميم والتجريد على تفريعات المجموعات البشرية التى تكتسب مظهرا متحدا .

ومهما يكن من امر تنوع تصنيفات السـلالات فان العلم ينظر الى أفراد البشر نظرته الى كائنات حية تنتقل فيها المورثات[1] Genes من الأصول الى الفروع بنسب متفاوتة ، فضلا عن أن تلك المورثات تعتريها الطفرات الفجائية[2] Mutatinons التى تجعل من التركيب الفسيولوجى للاجناس تركيبا ديناميكيا . ويترتب على ذلك أن تصبح تلك التصنيفات متبدلة غير ثابتة .

ـ الآراء الفلسفية والسياسية فى التفاوت العنصرى ـ

والذى يعنينا بوجه خاص هو أن التفرقة بين المجموعات الانسانية تقترن عـادة بأحكام تقويمية تقديرية مؤداها أن الصفات الفيزيقية تدل على تفوق أو انحطاط نفسى أو اجتماعى للمجموعة البشرية التى تتميز بها .

وقد جرت عادة غالبية المفكرين من فلاسفة واجتماعيين على التسليم بالافكـار المتعلقة بالتمايز العنصرى وقد اتخذت هذه الافكار فى أطوارها الأولى مظهر الشعوبية التى كانت مألوفة بين المجتمعات التاريخية المتحضرة لا سيما مصر والفرس واليونان والرومان ، فمما يؤثر عن المصريين القدماء أن أحد الفراعنة قد أقام نصبا على حدود النيل الجنوبية ، ليمنع أى « زنجى » من عبور هذا الحد ، وقد عد هذا أقدم أثر

(١) المورثات أو الصبغيات Genes
(٢) الطفرات Mutations

تاريخى لاثبات التمييز العنصرى ضد الزنوج العبيد[1] • وكان اليونان والرومان يقسمون العالم ممن عداهم قسمين : قسم يسمونه بالبرابرة ، وهى الجماعات التى لم يعرف لها تاريخ أو يؤثر لها حضارة ، وقسم يسمونه بالجنتيل[2] Gentiles ويحوى كل الشعوب الأخرى التى من جنس دون الجنس الرومانى • وعن الرومان أخذ اليهود والمسيحيون هذا اللفظ ولكنهم صبغوه بالتمييز على أساس دينى ، فأطلقه اليهود على جملة الشعوب غير الاسرائيلية ، وأطلقه المسيحيون على جملة الجماعات غير اليهودية ، وغير المسيحية ، وفى مقابل ذلك نجد تعصبا شعوبيا من جانب الفرس باعتبارهم أصحاب سيادة وتفوق على الشعوب التى دانت لهم من العرب والآراميين والعبريين ، وبالتالى يقابل هؤلاء بالتعبير عن تفوقهم الشعوبى اما بالفخر بفصاحة اللسان وعراقة الانسان ، فجاء التمييز بين العربى والعجمى ، واما الاعتزاز بالسمو الدينى والروحى مما يظهر جليا فى زعم الشعب الاسرائيلى بانه شعب الله المختار ، بل ان سفر التكوين قد تضمن بذور التمييز العنصرى فى حكمه على أبناء كنعان باللعنة والاستعباد[3] •

ومما يجدر الاشارة اليه أن ما ورد فى سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث والشعوب التى انحدرت من كل ولد منهم ، كان من أول الدعائم لتقسيم الاجناس البشرية مع ملاحظة أن سفر التكوين قد اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية اكثر من اعتماده على الصلات الفيزيقية والبولوچية التى يتخذها علماء الانتروبولوجيا أساسا لتصنيف المجموعات البشرية • هذا الى ان روايات وانساب التوراة كان لها أثرها فى التعصب القبلى بين العرب ، تعصبا يقوم على التفاوت العنصرى ويظهر هذا جليا فى التمييز بين بدو الشمال وعرب الجنوب على أساس ان العرب فى تسلسلهم من جدهم الأعلى سام بن نوح يتبعون فرعين منفصلين : فأهل الشمال منحدرون من عدنان المتناسل من اسماعيل وأهل الجنوب يرجعون فى تسلسلهم الى قحطان بن عابر • ويختلط هذا التصنيف مع تقسيم العرب الى عرب عاربة وعرب مستعربة والى تقسيمهم[4] الى الحمس والطلس والحل، ونجد ان

(١) Juan Comas : The Race Question in Modern Science ; Racial Myths
(٢) Pharoth : Sesotris III, (B.C. 1887 1849) Unesco 1951
(٣) Ibid : (h) General Observations on Racial Prejudices & Myths
(٤) ابن حبيب ـ المحبر ص ١٨٠

بعض مفكرى العرب قد عرض لموضوع التمايز العنصرى ، نقد أشار الجاحظ[1] فى كتابه الحيوان الى هذا الموضوع فى كلامه عن النتاج المركب فيحدثنا عن «الخلاسى» من الناس وهو الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء ويكون عادة أعظم وأقوى من أبويه، ويتكلم عن «البيسترى» من الناس وهو الذى بين الأبيض والهندى ولا يكون يكون فى قوة أبويه ولكنه يكون أجمل ملامحا • • •

ولقد حارب الاسلام فكرة العصبية القبلية ، الا أن النظم الاسلامية لم تستأصل جذورها من نفوس العرب ، فقد راعاها الخليفة فى أعطيات الخراج[2] ، كما أنها برزت فى عهد الأمويين ، وظهرت الشعوبية فى عهد العباسيين ، وأدى ذلك الى ايجاد طوائف عربية مصطفاة تمتاز بشرف الدم وقرابتها للرسول (صلعم) أو أهل البيت وأصبح لهذه الطوائف حقوق اقتصادية وسياسية تتمتع بها جماعة الأشراف الذين ينتمون الى جنس عربى مختار أو مصطفى بالرغم من أن دعوة النبى (صلعم) كانت لا تفرق بين العربى والأعجمى ولا بين القرشى والحبشى الا بالتقوى •

وقد ذهب الكثير من المفكرين الى التسليم بالآراء المتعلقة بالتمايز العنصرى ، بل وحاول اغلبهم من فلاسفة واجتماعيين تبريرها بدون اخضاعها للدراسة العملية النقدية التحليلية الصحيحة• وقد تجلت هذه النظرة فى عدة اتجاهات فلسفية وفكرية نذكر منها على سبيل المثال :

أولا : الآراء الميثولوچية والثيوقراطية البدائية التى صورت العناية الالهية وقد أودعت فى الطبيعة البشرية نزعة الاستعلاء العنصرى اذ أنها تؤثر جنسا معينا بالرعاية وتعاهده على السيادة وفى ثنايا هذا الاتجاه الفكرى نجد البذور الأولى التى اختلطت فيها فكرة التفوق العنصرى بالسيادة والسلطة وامتزجت بفكرة التقديس والألوهية ويتمثل هذا فى الاساطير المصرية القديمة التى تصور حكام مصر الاقدمين من الآلهة العظام أو أنصاف الآلهة ، أى أنهم أسمى طبيعية وأرقى عنصرا

(١) الجاحظ ـ الحيوان حـ ١ ص ١٥١
(٢) أبو عبيد القاسم : الاموال ص ٢٢٣ الماوردى : الأحكام السلطانية حـ ؛ ص ٣٥٢ ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى هاشما من قريش واصطفانى من بنى هاشم •

من الرعايا المحكومين ، ونجد مثل هذا الزعم فى تعاليم مانو اذ تصور حكـام الهند بأنهم أنصـاف آلهة فى أثواب انسانية مما يجعلهم أسمى من سائر الأفراد العاديين وهم بطبيعتهم مزودون بالجواهر القدسية المعروفة بأسماء ڤارونـا واندرا وأجنى Agni, Indra, Varonna ويرى العالم الانجليزى هوكارت[1] Hocart أن لفظ فارونا يؤدى فى مفهومه الأصلى ما يؤديه لفظ رادكس radix الذى اشتـق منه العلامة فينو Jean Finot مصطلح « الجنس » بالمعنى الذى استخدمه فيه كل من بوفون Georges Buffon وتاوت François Tout وسانت هلير Geoffry Saint Hilaire وجيمس برتشارد James C. Prichard .

وقد ذخرت الميثولوچيا اليونانية بأقاصيص تبين أن النظام الاجتماعى عند قدماء اليونان كان يقوم على أساس طبقى ثيولوچى : فى قمة الهرم الاجتماعى الآلهة وهم يشبهون البشر فى صفاتهم وفى تكوينهم الجسمى ويتولون شئون القوى الكونية ، ويأتى بعدهم فى السلم الاجتماعى أنصاف الآلهة وهم أدنى منزلة من الآلهة ، ثم يجىء اليونان الأول الذين ترجع اليهم الأساطير الفضل فى نهضة اليونان فى مختلف شئون الحياة وتفوقهم على ما عداهم من الشعوب ، ثم يأتى بعد هذه الطبقات فى المنزلة طبقة الشعب من بنى الانسان من نسل Epimethée (الانسان الأول) وباندور "Pandore"(المرأة الأولى)[2] .

وقد ساد هذا الاتجاه الثيوقراطى ـ فى تعليل التفاوت العنصرى ـ المجتمعات السامية ، واستغل الانسان الدين الروحى فى تبرير استعمار الاوروبيين للشـعوب الأخرى الملونة ، وقد لجأت الشعوب الاستعمارية الى نص دينى ورد فى العهـد القديم لتستند اليه فى استغلال جهود تلك الاجناس ، وذلك النص هو الذى يشير الى أنه قد قضى على أولاد حام أن يكونوا قاطعى أخشاب وأن يعملوا فى رفع الماء وحمله[3] ، واستخلصوا من ذلك أن الشـعوب الملونة قد كتب عليها القيام بأعمال

(١) Hocart : Caste in India 1950. Hutton : 19 III. Caste in India, 1946

(٢) Homére : L''Iliada & : l'Odyssée
Hésiade : La Theogonie Epimetheé, Pandore,

(٣) ومعنى ذلك أن السيادة والحكم أمور تقتصر على فيئات من الناس زودتهم الطبيعية بمعادن نفسية وجبلة خاصة ، أما الآخرون من الفئات المحكومة والمغلوبة على أمرها ، فقد كونت تكوينا طبيعيا يحرمها من ممارسة أى نوع من مظـاهر السلطة . فقد كتبت الطبيعة على البعض بالحكم والقيادة وعلى البعض الآخر بالانقياد والطاعة .
Plato : The Republic. (translated by A.D. Lindray. Book P. 415 416

السخرة لخدمة الجنس الأبيض ، وليس لها من سبيل للتحرر مما قضت به المشيئة الالهية ، وبهذا أخرجوا النصوص الدينية عن القصد الذى تهدف اليه بما يحقـق لهم أغراضهم الاستغلالية .

هذه الافكار الميثولوجية تنطوى على ظاهرة باثولوجية مرضية ، يمكن فهـم مصدرها البدائى من طبيعة مقومات التكامل الاجتماعى ، اذ يبدو أن كيان الجماعة وتماسك وحدتها ، كان مرتبطا بالتعصب لمقومات جنسها ، بل وبتقديسها لعنصرها. ويظهر ذلك واضحا بتحليلنا للعقائد التوتمية[1] التى تسود الجماعات المتخلفـة فى الحضارة ، فالتوتمية تفترض الاتجاه الجوهرى بين الفصيلة الانسانية وتوتمهـا ، وتقديس التوتم يرجع الى الاعتقـاد بانحدار أصـولهم عنه ، أى باعتباره أصـلا لجنسهم ، ولذلك فان كثيرا من الطقوس الدينية البدائية تقصد الى تغذيته وتقوية المبادىء التوتمية التى تعتبر حاملة لمبدأ الحياة ، مخلدة للجنس ، لازمة للانسـال والتكاثر فى الجماعة . ومن ثم يستبعد من مجالات تلك الطقوس الجماعات والافراد الذين يحملون تواتم مغايرة ، لأنهم من فصائل بشرية اخرى تبعا لتواتمهم ويجب درء خطرهم وتجنب مخالطتهم وخاصة فى تلك المناسـبات الدينية التى لها شأنهـا والتى يرتبط كيان الجماعة بها .

ولئن كان «دركهيم» قد انتهى من تحليله للحياة الدينية عند القبائل البدائية الى أن أول ديانة انسانية هى عبادة الجماعة لنفسها[2] ، فاننا اذا تبينا منهجـه التحليلى أمكننا ان نستخلص ان تقديس الانسانية الأولى لم يكن للجماعة فى ذاتها وانما كان لجنسها ، ويستقيم هذا الزعم مع الناموس الحيوى فى الحرص على البقاء .

ثانيا : نظرية أفلاطون فى تمييزه معادن الناس وطبقاتهم ، اذ جرى على لسانه فى دستور مدينته الفاضلة بلغة ميثولوجية ان الاله ، وضع فى طينة بعض المواطنين ذهبا، ليمكنهم أن يكونوا حكاما ، وهؤلاء هم الاعلى مرتبة والأكثر احتراما ، ووضـع فى جبلة مساعديهم فضة ليأخذوا مركزا أدنى من السابقين ، أما طبقات الشعب من

(١) التوتم Totem عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد ، تتخذه العشيرة رمزا لها ولقبا لجميع افرادها ، وتنزله منزلة التقديس ، وتعتقـد ان كيانهـا الاجتماعى مرتبط به لانه يؤلف معها وحدة اجتماعية متكافلة

(٢) E. Durkheim : Les formes elementaires de la vie religiouse, Paris 1925

الزراع والعمال فقد وضع فى جبلتها حديدا ونحاسا[1] .

وهكذا يقسم الناس الى طبقات وفقا لمعادنهم أو عناصرهم .

ثالثا : وكذلك آراء أرسطو فى الرق والاستعباد اذ يعتقد ان الطبيعة قد أعدت شعوبا للتفوق والسيادة ، وخصت الأخرى بالانحطاط والعبودية .

وهذا الاتجاه لم يكن قائما على أساس التعصب العنصرى بالمعنى المألوف فى وقتنا الحاضر ، الا أن آراء أرسطو تعتبر تبريرا لذلك الصراع الشعوبى الذى كان سائدا بين الشعب اليونانى من ناحية وسائر الشعوب الأخرى التى أطلق عليها اليونان اسم البربر معارضا بذلك آراء السوفسطائيين الذين استغلوا قوة جدلهم الكلامى فى دحض مبررات العبودية العنصرية ، ولا شك أن آراء أرسطو لم تصادف قبولا لدى المدرسة الرواقية التى مجدت العدالة الانسانية والمساواة العنصرية . وهذه النظرة لم تقم على اساس علمى سليم ، غير أنها كانت ترجمة لمنطق تلك المرحلة العبودية التى مرت بها المجتمعات الانسانية حين كان ينظر الى المنازعات العنصرية على أنها أمور طبيعية ، ولم ير أنصار العنصرية اذ ذاك أنها ظواهر تاريخية اجتماعية وانما نظروا اليها على أنها أمور محتومة لا سبيل الى تسويتها الا بطريق التوافق الطبيعى الذى يتم باستسلام الاجناس المنحطة لسلطان الاجناس الراقية .

وغنى عن البيان أن آراء أرسطو كانت نواة للأفكار التى سيطرت على أصحاب المذاهب الطبيعية فى تفسير وتبرير التفاوت بين الاجناس على أساس التكوين الفطرى والانتقال الوراثى لصفات المادة الحيوية من الأصول الى الفروع ، فالطبيعة قد أعدت كل جنس اعدادا خاصا ، وشكلته على نحو معين ، وأمدته بعناصره الأصيلة متمثلة فى غرائزه الكامنة واستعداداته الفطرية التى تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل فى الجنس النقى الذى يحتفظ بخصائصه المميزة مهما تعاقبت عليه الأجيال ، ومن هنا كان التفاوت أمرا محتوما ودائما ولا سبيل الى التخلص منه[2] .

رابعا : وقد تولد عن التبرير الثيولوجى للتفاوت العنصرى والذى سبقت الاشارة

(١) جمهورية افلاطون ص ٩٠ دستور المدينة

(٢) اعتنق هذا الرأى فريق كبير من العلماء وعلى رأس هذا الفريق Henry Houssey وأوجست كونت A. Conte وهربت سبنسر H. Spencer Fontenelle وشوبنهور وجالتون Galton

اليه ، تيار معارض كان نتيجة لمعارضة بعض رجال الدين لا سيما الدين المسيحى[1] ، فى تفسير النصوص الدينية تفسيرا استغلاليا مغرضا ، وأيد هذا الاتجاه المعارض اخضاع الدراسات المستوحاة من الكتاب المقدس للمنهج المقارن ومحاولة كثير من المفكرين تصور الحالات البدائية للمجتمعات المتخلفة فى الحضارة والتى كان يطبق عليها جماعات المتوحشين البرابرة . وفى مقدمة الباحثين بهذا الصدد ديمودين[2] وفروبن[3] وسبنسر[4] J. Spener, Frobein, De Modene وقدألف الاخير كتاباقيما عن العادات والتقاليد الخاصة باسرائيل يعتبر مصدرا للمقارنات بين شعب اسرائيل المختار والشعوب الأخرى التى تحدث عنها الكتاب المقدس .

خامسا : وكان من نتائج اكتشاف الدنيا الجديدة ومعرفة شعوب أمريكا من الهنود الحمر والسكان الأصليين أن اتجه التفكير الى تشبيه تلك الشعوب ومقارنتها بالشعوب التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس ويظهر هذا واضحا جليا فى كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتاى Montaigne(١٥٣٣ — ١٥٩٢) . ومن الظريف أن الناقد لانسون[5] Lanson قدعلق على كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتسيكو وبقوله أن شعوب الله وشرائعها المنزلة قداحتلت فى كتابه مكانا ضئيلا بالنسبة لشعوب أمريكا المتوحشة وشعوب جزر المحيط الهادى المتبربرة « وكذلك سيطرت هذه النزعة على كثير من المفكرين ممن دعوا للحرية والمساواة والاخاء الانسانى ، فنجد مثلا ان ڤولتيره Voltaire يدعو الى القضاء على مظاهر الاضطهاد العنصرى ولا يؤيد التمايز الجنسى، فذلك انحراف اجتماعى لا يتمشى فى نظره مع العقل كما انه ينافى الفضيلة التى يجب أن يتحلى بها الانسان المتحضر والتى يجب ان يرعاها فى معاملاته وعلاقاته مع الاجناس الاخرى المتأخرة أو المتخلفة فى الحضارة . ومهما يكن من أمر الدعوة التى وجهها ڤولتير فى مناهضة التمايز العنصرى فلا شك أن آراءه ترتكز على الاعتقاد بأن هناك أجناسا متأخرة تمتاز بالتوحش والهمجية وتتنافى عاداتها وتصرفاتها مع الأذواق السليمة ومع

(١) J. Dottin : Les Anciens Peuples de l'Europe. 1916 P. 25 - 32.

(٢) De Modene : Ceremonies et coutumes qui s'observent chez les Juifts

(٣) Frobein: Les Antiquités Judaiques 1545.

(٤) J. Spencer : De Legibus Hebraeorum Ritualibus . et Forum Rationibus (Cambridge 1686) & R. Linton : The Study of Man, N. York 1934.

(٥) Voltaire : Philosophie de l'Histoire P.P. 7,9, 23 (Dictionaire : Egalité)

الأوضاع العرفية والقانونية التى تسيطر على المجتمعات المتمدنة الراقية بل انه غالى وجانب الصواب فى وصفه لقبائل الايروكوا Iroquois بأنهم من أكلة لحوم البشر وآية ذلك أن فولتير لم يتجرد من النزعة المعيارية والأحكام التقديريـة وعارض التمييز العنصرى على أساس خلقى وان لم يكن يعارضه على أساس علمى واقعى ، وما يؤخذ عن فولتير فى هذا الصدد يمكن أن يؤخذ على العلامة روسو[1] J.J. Rosseau حين حاول أن يتصور الحالة الفطريـة التى مرت بها المجتمعات الانسانية بطريـق التخمين فتعرض لجماعات متأخرة وصفها بأنها متوحشة ومنحطة كجماعة الهوتينتوت Hottentot من أقوام افريقيا ، والأروكوا من أقوام أمريكا ، وان كان قد تأثر بما كان يرويه رهبان الجزويت عن طيبة الاقوام المتأخرة (Le Bon Sauvage)

ويمكن القول بصفة عامة أن آراء هذه الطائفة من المفكرين قد أعوزتها البيانات الصحيحة ، كما أعوزها المنهج الموضوعى الواقعى السليم ، وكان التخمين والخيال يقوم فيها مقام الملاحظة المنهجية • ولم يتجرد هؤلاء المفكرون من أهوائهم الشخصية وأحكامها التقديرية بل لم يكن قصد الكثير منهم دراسـة وفهم حقيقة التفـاوت العنصرى بقدر النقد والسخرية والتهكم[2] • على أننا لا ننكر أن الاتجاه الفكرى العام لهذه الطائفة بدأ ينحو نحو الدعوة للتقليل من شأن التفاوت العنصرى أو محو آثاره على أساس أن ذلك الموقف يعتبر فضيلة من الفضائل • ويظهر ذلك من ثنايا كتابات مونتاى Montaigne عن هنود البرازيل (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) وفى دعوة كل من فولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) وجان جـاك روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) وبيفون Buffon (١٧٠٦ ــ ١٧٨٨) للمساواة بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، ولعل هـذا الفريق يمتاز تميزا واضحا عما ذهب اليه بعض فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال دافيد هيوم Hume (١٧١١ ــ ١٧٧٦) وتين Taine (١٨٢٨ ــ ١٨٩٣) ورينان Renan (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) الذين أنكروا تساوى الاجناس البشرية فى قدراتها وملكاتها[3] العقليـة واستبعدوا أن يكون الزنجى أو الهندى مساويـا للنوردى Nordic •

(١) J.J. Rousseau : Discours sur l'Inégalité p. 176

(٢) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

(٣) Goldenweiser : Antropology N. York 1937 P.P. 364-366

سادسا : وترجع طائفة من المفكرين فكرة التفرقة العنصرية الى عوامل تاريخيـة واجتماعية نشأت عن هجرة اجناس واستقرارها فى أو اغتصابها لبلاد تسكنها أجناس أخرى • فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم الحضارى ويحرم منها الاقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التى يغلها بها • ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاجتماعية والحضارية للعنصر القاهر فى الوقت الذى يتردى السكان الاصليون فى الحضيض والتأخر، وكلما أمعن الزمن فى المضى على تلك الحال كلما بدا للعيـان أن الأقوام الغالبة القاهرة تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الأقوام المضطهدة المقهورة • هذا ويقوم طائفة من الكتاب الذين ينتمون الى العنصر المتحكم بتصوير هذه الفوارق المصطنعة على أنها فوارق أصيلة مرجعها تفوق عنصرهم فى مقوماته وخصائصه على العنصر المغلوب ولهذا آثاره النفسية الاجتماعية على الشعب الأصلى ، اذ أن غرس هذه الآراء يؤثر على سيكلوجية هؤلاء الأقوام ويجعلها تدين بالطاعة والاستسلام لحكم الواقع باعتباره أمرا محتوما • بل كثيرا ما يتضافر العامل الثيولوجى مـع العامل الاثنولوجى فى تأييد وتدعيم سيطرة عنصر على عنصر آخر بحكم أن هـذه الفوارق مرجعها مشيئة الله وحكم الطبيعة • وأبرز مثال على ذلك نظام الطبقـات فى الهند ، فالباحث المدقق يستطيع أن يقرر أن هذا النظام قام على أساس تفاوت عنصرى ثم صورت المانوية هذه التفرقة على أنها من وحى الاله براهما نفسه ، فقد أرادت مشيئته أن ينقسم المجتمع الهندى[1] الى الطبقات الآتية :ــ

(١) طبقة رجال الدين أو البراهما وتمثل هذه الطبقة رأس الاله واغلب الظن ان هذه الطبقة ترجع الى هجرة الدرافيديين Scytho-Dravidians قبل سنة ٢٠٠ ق•م• واستيلاؤهم على السكان الأصليين ، قد مكنهم من الاستئثار بالنفوذ والجاه والطهارة والنقاوة ، ويمكن القول بصفة عامة أن الطبقات العليا جنوب الهند تمثل الصفات الدرافيدية الأصلية[2] كما ان الطبقات العليا بسهول الهندستان تمثل العنصر الهندى الآرى •

(١) ابراهيم رزقانه العائلة البشرية ص ١٩٣ ــ ١٩٥ ، ١٩٦
وهو لا يختلف كثيرا عن جنس البحر الابيض المتوسط ص ١٩١ المرجع السابق.

(٢) Jacob & Storn : Outline Antropology P. 587. 1948 & The Living Races p. 48-49

(٢) طبقة المحاربين Kchatryas أو الكشاترية وتمثل ذراع براهما وتنسب هذه الطبقة الى الجنس القوقازى Homo Caucasicus

(٣) طبقة التجار والصناع وتمثل فخذ براهما ويمكن نسبتها الى العنصر الفيدى Veddoid Caucasoid أو عنصر الفدا •

(٤) طبقة العبيد والأرقاء التى تمثل قدم براهما وتعرف باسم السودرا Soudra

(٥) ويوجد الى جانبها طبقة الباريا أو المنتوذين وترجع أصولها الى القبائل الوطنية التى كانت تسكن الهند قبل هجرة الدارفيديين مثل قبائل شاندرا Chandra والسكاى Sakai والسينوى Senoi والبنيان Paniyan

ويبدو أن نظام الطبقات الهندى[1] قد نشأ اولا بين المجموعتين الجنسيتين الكبيرتين : ما قبل الدارفيديين (والسكان الأصليين) والدرافيديين ، والآريين ثانيا ، ومما ساعد على تأصل هذا التمايز الحاجز اللونى اذ أن البيض كانوا يحتقرون السود ويعتبرونهم أقل منهم مرتبة • هذا الى ان المنزلة الاجتماعية لكل طبقة قد تطورت تبعا لظروف الحياة الاجتماعية ، فنجد مثلا أن الزعامة كانت لطبقة الكاشاتريه المحاربة اثناء الحروب الوطنية التى نشأت بين السكان الأصليين والنازحين المهاجرين• ولا شك أن خوف الأجناس النازحة الى الهند على خصائصهم المميزة لعنصرهم كان أهم حافز لهم على وضع نظم تابو Tabou (مرمات مقدسة) عارمة تحرم عليهم التزاوج أو الاختلاط بغيرهم من الأجناس الأخرى لأن ذلك قد يؤدى الى انحطاط خواصهم العنصرية • وقد ترتب على ذلك قيام نظام طبقى ثم تطور هذا الأساس فأصبح المولد هو الذى يحدد مركز الفرد الاجتماعى والطبقة التى ينتمى اليها • على أن هذا التحليل لا يحملنا على التسليم بأن هذه العناصر الانثولوجية ظلت نقية صافية اذ أن الثابت أنه حدث اختلاط بين الاجناس من جل الطبقات، فمثلا الراجبوت والطبقات العليا الذين ينتمون الى العنصر الهندى الآرى لا يمكن أن يوصفوا بالنقاوة المطلقة بل امتزجت بهم دماء أخرى من السكان القدماء بشمال الهند ثم

(١) مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ص ٢٧ ــ ٣١ ابراهيم زرقانه المرجع السابق ص ١٦٢

(٥) Chanda, Sakai, Senoi
Panyian
Tabou

من الغزاة الذين أتوا بعدهم ، على أن الملاحظ بصفة عامة أن الطبقات العليا اكثر نقاوة تتلوها الطبقات المتوسطة ثم الطبقات الدنيا ، ويرجع هذا الامتزاج الى ان القيود الاجتماعية ونظم التابو لم تتخذ شكلها النهائى فى الصرامة والدقة الا بعد تطور أتاح فرص المزج•

ويبدو ان التمايز العنصرى بين السكان الأصليين والغزاة الفاتحين والمهاجرين الغاصبين للسلطان ، كان مألوفا عند اليونان والرومان فى القرون الأولى ، فيشير العلامة دى كولانج[1] Fustel de Coulonges فى كتابه المدينة القديمة الى أن طبقة السوقة أو الدهماء[2] Plebs لم تكن تكون عنصرا من عناصر الشعب populus فى الأصل • ومع أن الكتاب الأقدمين لم يلقو ضوءا على التكوين الأول لهذه الطبقة الا أن المرجح أنها كانت تتألف من السكان الاصليين الذين غلبوا على أمرهم ، وكانت هذه الطبقة منفصلة عن الموالى والعبيد Thétes وكانت حالتها كحالة السودرا او المنبوذين فى الهند ، شعب محتقر مهين ليس له أن يشترك فى الطقوس الدينية ، وكانت معاملتهم تعتبر ضربا من التدنس والنجاسة ، ولم يكن لهم أية حقوق مدنية أو سياسية ولم يصبحوا مواطنين الا بعد ثورتها واندماجها فى الشعب باندماج الموالى فى السوقة • وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نفترض أن النظام الطبيعى فى تلك المجتمعات التاريخية قام أصلا على أساس عنصرى اثنولوجى• سابعا : هذا وفى خلال العصور الوسطى والاقطاعية كان النبلاء يبررون امتهانهم واحتقارهم لطبقة العبيد والفلاحين الذين لم يكونوا من أصل زنجى بترويج تلك الاسطورة التى ترجع أصلهم الى حام بن نوح ، الذى لعنه والده ودعا على سلالته بالعبودية والمهانة •

وذكر العلامة هرتز[2] Hertz أن طبقة الاشراف فى فرنسا حاولت حتى نهاية القرن السابع عشر أن تدعم مركزها الطبقى وتبرر سيادتها بأسطورة خيالية ترجعهم اصلا الى فرانسوا François بن هكتور[3] Hector

(١) Fustel de Coulanges : La Cité Antique, Etude sur le Culte, le Droit,
(٢) Hertz : Race & Civilization, P. 5.
(٣) Cont de Boulanivilier

وفى أواخر القرن الثامن عشر نجدأن كونت دى بولانفيى Count de Boulanviller ينسب الطبقة الحاكمة فى فرنسا الى العنصر الجرمانى الغازى ، فى حين أن سواد الشعب الفرنسى يتكون من العنصر الكلتى والرومانى المغلوب على أمره فكانت الثورة الفرنسية فى نظره قلبا للاوضاع الطبيعية[1] التى تقضى بأن تكون طبقة النبلاء والحكام من العنصر الغالب وطبقة المحكومين من العنصر المغلوب .

ومن وجهة نظر أخرى فسر أبيسييه[2] Joseph Emanael Abbé Sieyés الثورة الفرنسية بأنها نتيجة طبيعية لسعى الطبقة المحكومة من سكان فرنسا الأصليين للتخلص من وطرد العناصر الدخيلة من الغزاة الفاتحين .

هذا وقد حاول كثير من المفكرين تمييز أفراد الطبقة الواحدة على أساس عنصرى فى ضوء التفاوت العنصرى بين الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا ، فيذهب ساخلاند[3] Erich Suchsland الى أن الافراد الذين قدر لهم النجاح فى حياتهم الاجتماعية ، لا بد وأنهم ينتمون الى جنس أرقى من أولئك الذين اصابهم الفشل ، وعلى هذا الاساس فالأغنياء أنبل جنسا وأصفى من الفقراء . ومن أنصار هذا الرأى أيضا كارل[4] Alexis Carrel فهو يعتقد أن المتعطلين من الطبقة البروليتاريا ينتمون بالضرورة الى عنصر منحط ، وهذا الانحطاط جرى فى عروقهم فافقدهم القدرة على الكفاح والنضال بل جعلهم لا يرون أية حاجة ملحة للصراع من أجل البقاء . وبذلك تنتهى بنا هذه المدرسة الى لون من الجبرية التعسفية للطبيعة البيولوجية وتجعل من الوراثة العامل الأول والفذ فى تقرير حظ الانسان ودرجته الاجتماعية وشخصيته ، ولا شك أن هذا الرأى يؤيده فريق كبير من الفلاسفة والمفكرين أمثال فونتينل وأوجست كونت وسبنسر وشوبنهور وجالتون ، ولكن هذا الرأى مدافع ويعارضه فريق كبير وعلى رأسه جون لوك وآدم سميث وجون ستيوارت ميل وليسنكو وكثير غيرهم فيقررون أن أثر الوراثة[5] فى الفصيلة الانسانية ليس شيئا مذكورا اذا قيست بأثر البيئة الطبيعية ومظاهر الثقافة المكتسبة

(١) Cont de Boulanviller
(٢) J.E. Sieyés Abbé : Qu'est ce que le Tiers Etat?
(٣) Erich Suchsland : Archiv Für Rassen Geselschafts - Biologie
(٤) Alexis Carrel : Man, the Unknown.
(٥) V. Ency of Social Science : Art Racial Conflict
Brit. : Art Social Conflict by Hans Kihm.
Juan Comas : Racial Miths p. 10

من المنظمات الاجتماعية بصفة عامة . بل لقد بالغ بعض أفراد اصحاب هذا الرأى فذهب الى أنه من الممكن التغلب على جميع آثار الوراثة باحداث تغيرات فى البيئة ، وغلا فريق منهم الى أبعد من ذلك فانكر أثر الوراثة اطلاقا فى الأنواع والاجناس البشرية ، ومن الثابت أن هذه العوامل لا تنفصل من حيث آثارها على الصفات المميزة للجنس ، بل احدها ليكمل الآخر ، فنحن نعلم من علم الوراثة أنه اذا كانت صفات الجنس تتقرر الى حدما بالمورثات Genes فان مميزاته يمكن ان تتغير ــ اذا عرفت الوسائل المناسبة فى نطاق حدود معينة بتغيير الأحوال البيئية المحيطة[1] . وكذلك يمكن الوصول الى تغيرات فى صفات الجنس اذا توصلنا الى وسائل تغير مؤثراته ، ومن المحقق من الناحية العملية أن وراثة صفات نوعية ممتازة ليس ضمانا للتفوق فى الذكاء أو فى النمو العقلى والجسمانى ، كما أن وراثة صفات عنصرية سيئة لا يحتم بالضرورة العجز أو التخلف الحضارى[2] . فالمشكلة على هذا النحو نسبية وليست مطلقة .

ثامنا : فى مستهل القرن التاسع عشر حدث تطور كبير فى النظريات السياسية والاقتصادية نتيجة لازمة للثورة الصناعية فى انجلترا والثورة البرجوازية فى فرنسا ونهضة الروح القومية فى النمسا والمانيا . وكان لهذا أثره فى الاتجاهات الفكرية المتعلقة بالتفاوت العنصرى . فنجد فى انجلترا مثلا كارليل Carlyle يقيم دعائم الفلسفة الارستقراطية ، ممهدا الطريق للامبريالية الانجلوسكسونية ، وتتلخص فلسفته فى أن رجل العمل خير وأفضل نوعا من رجل النظر والتأمل ، فكان مترجما صادقا للتيار الاجتماعى الذى ساد انجلترا بعد الانقلاب الصناعى وكان دافعا ومبررا لموجة الرق والاستعباد التى اجتاحت امريكا عقب اختراع آلة الحليج الميكانيكية وشيوع استعمالها فى الولايات الجنوبية اذ ازدهرت زراعة القطن نتيجة لذلك واستدعى ذلك استرقاق عدد كبير من الزنوج العبيد ، ونما فى الولايات المتحدة نظامان اقتصاديان مختلفان هما : النظام الصناعى ومعه الزراعة التى يضطلع بها أحرار فى الشمال ، ثم النظام الزراعى الصرف الذى يقوم على اكتاف العبيد فى الجنوب ، ولم يلبث أن اصطدم النظامان وقام النزاع بين ولايات الشمال التى نادت

(١) V. Canclin : Heredity & Envitronment.
(٢) R.H. Wheeler & Perkins : Principles of Mental Development.
Hollingworth : Mental Growth & Decline.

بالغاء الاسترقاق وبين ولايات الجنوب التى نادت بالاحتفاظ بنظام الاسترقاق[1].

ونجد من علماء فرنسا الكونت دى جوبينو[2] Count de Gobineau يشيد بفكرة الجنس النقى ، وبالرغم من أنه فرنسى الا أنه يقرر أن الجنس الجرمانى هو اكثر الاجناس نقاوة ، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة ومشعل الثقافة من الجنس الآرى ، وهو يتميز عن الاجناس اللاتينية التى لم تعد أجناسا نقية بعد أن اختلطت بالشعوب السامية والاجناس الزنجية المنحطة ، ولم يخف جوبينو امتعاضه ونقده الشديد للنظم الديمقراطية التى كانت مألوفة فى بلاده، وراجت آراؤه وأفكاره فى كل من المانيا وأمريكا بالرغم من أنها كانت آراء فجة ينقصها التعليل العلمى الصحيح ، فضلا عن أنها لعبت دورا هاما فى خلق روح معارضة للجنس السامى — وغنى عن البيان أن جوبينو وأمثاله خلطوا من الناحية العلمية بين الجنس واللغة والحضارة .

ويرجع هذا الخلط الى تفسير ما ورد فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم عن نجاة سيدنا نوح وأولاده سام وحام ويافث بعد الطوفان ، فقد قسم المفسرون البشر وفقا لذلك الى الجنس السامى والحامى والآرى ، وفى نفس الوقت قسمت اللغات البشرية وفقا لهذا التصنيف الثلاثى . ويبدو أنه غاب عن أذهان النقاد أن سفر التكوين اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية اكثر من اعتماده على الصلات والروابط الفيزيقية والبيولوجية التى يتخذها علماء الانسان أساسا لتصنيف الأجناس البشرية .

هذا الى أن كثيرا من علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) ، قد أقاموا باكورة أبحاثهم اللغوية المقارنة على أساس أن هناك مجموعات من اللغات ، تجمع أفراد كل مجموعة منها صلات تشابه وتقارب ، كأن تتفق مثلا فى أصول المفردات وطرق الاشتقاق وما الى ذلك من القواعد اللغوية ، فذهبوا الى أن هذه المجموعات لا بد وأن تكون قد

(١) هذا ما يعرف بالحرب الاهلية الامريكية التى بدأت فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦١ بزعامة ابراهام لنكولن .

(٢) Counte de Gobineau : An essay on The Inequality of the Human Races. 1855

صدرت عن أصل لغوى واحد ، واستخلصوا من ذلك أنها لا بد وأنها تمثل حضارة وثقافة واحدة ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك : وهو أن الناطقين بها ينتسبون — لا محالة — الى جنس واحد . وقد ساعد على ذلك الاستنتاج أن التوراة قد لاحظت — من باب التسهيل والتقريب الى الاذهان — اطلاق الأجناس أحيانا على الشعوب المتكلمة بلغة معينة أو المشتركة فى صلات أو روابط ثقافية أو سياسية[1]، وقد تعرض كثير من العلماء أمثال بروكلمان Brockleman لمناقشة أسباب الاختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات ، وانتهوا الى نقد تفسيرات رواية التوراة ، واعتقد اللغوى الايطالى ترومبيتس A, Trombettis فى نظرية اتحاد نوع بنى الانسان من جهة الجنس اعتمادا على ان جميع اللغات لو حللناها وتتبعناها ترجع الى اصل واحد . وقد ذكر العلامة اللغوى ماكس موللر[2] Max Muller سنة ١٨٨٢ انه حين يقول أن ثمت جنسا آريا ، فانه لا يعنى البتة تشابها فى التكوين الفيزيقى لشعوب معينة وانما يعنى وجود تشابه فى اللغات التى ينطقون بها .

ولعل ابرز اختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات ما وقع بين اللغات الآرية (الهندو أوربية) ومجموعة الشعوب التى تسمى بالآرية أيضا . وتشتمل هذه المجموعة من اللغات على ثمانية فروع :

١ — اللغات الهندية : الهندية الايرانية — السنسكريتية والفارسية القديمة والافستيه .

٢ — اللغات الأرمنية .

٣ — اللغات الايطالية (الرومانية واللاتينية وما تفرع منها من ايطالية واسبانية وبرتغالية وفرنسية) .

٤ — اللغات اليونانية .

(١) فقد اعتبرت التوراة مثلا العامورين الفنيقيين من الحاميين لمجرد أنه كانت تربطهم بالحاميين فى مصر وافريقيا الشمالية روابط سياسية وتجارية .

٥ — اللغات الالبانية .

٦ — اللغات الكلتية التى بقى بعض أشكالها فى لهجات ايرلندا وويلز .

٧ — اللغات الجرمانية (الانجلوسكسونية والهولندية والألمانية) .

٨ — اللغات البلطيقية (الليتوانية والروسية) والسلافية (البولونية الروسية).

وظن علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) ان الشعوب والمجموعات الجنسية التى تنطق بها ترجع الى أصل سلالى واحد هو الجنس الآرى .

ويجدر الاشارة فى هذا المقام الى الملابسات التى وقع فى ظلها الخلط بين الآرية كلغة والآرية كجنس . ومما قيل فى هذا الصدد أن أول من اكتشف أوجه التشابه بين مجموعة اللغات الهندوأوربيه التى سميت فيمابعد بالآرية هو المستشرق الانجليزى وليم جونز W. Jones وقد كان يعمل قاضيا فى الهند واشتغل اثناء اقامته هناك بدراسة اللغة السنسكريتية ، وفى فبراير عام ١٧٨٦ صرح أن اللغة السنسكريتية اكمل بناية من اليونانية وأغزر مادة من اللاتينية ، وهى مع ذلك شديدة العلاقة بهما فى الأصول والافعال والقواعد بحيث لا يتصور الانسان أن المشابهة بنت المصادفة ، بل ان عالم اللغة اذ يدرس اللغات الثلاثة لا بد أن يؤمن بأنها من نبع واحد شامل وربما زال من الوجود .

هذا الاعلان هو الذى حمل علماء فقه اللغة على أن يدرسوا العلاقة بين السنسكريتية وأقدم اللغات الأوربية ، وبفضل اتباع الاجرومية القياسية امكن تشييد سمات اللغة الأصلية التى نطق بها السلف المشترك لتلك الشعوب قبل انقسامها وتشتتها ، وقد سميت اللغة الأصلية باللغة الهنديه الأوروبية . وعلى ذلك فان اكتشاف وشائج القرابة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية هو الذى جعل العلماء يحكمون بانتمائها جميعا الى أصل واحد ، وامتد هذا الحكم الى الاعتقاد بان الناطقين بهذه اللغات جميعا يرجعون الى أصل جنس واحد أيضا . ومن أشهر دعامات هذا الاتجاه المستشرق الالمانى شلوتزر Schlözer الذى أعلن فى أواخر القرن الثامن عشر أن الشعوب التى تنطق باللغات الهندية الأوروبية تنحدر كلها الى جنس واحد هو الجنس الآرى الذى يقال أنه دخل أوروبا عن طريق آسيا

والذى ينسب اليه التفوق العقلى والجسمى . وذهب نفس المذهب العالم الالمانى اللغوى ماكس موللر Max Muller ١٨٨٢ .

فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الجنس السامى . فأساس فكرة الجنس الآرى اذن هو ما لاحظه علماء اللغات من اتفاق فى الالفاظ والقواعد بين اللغات الأوروبية الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية وبين الاغريقية والجرمانية والسلافية وبين لغة الهنود القديمة المسماة بالسنسكريتيه فأجمعوا عن طريق التخمين والفرض على أنها كانت فى الأصل لهجات لقبائل كانت تنتمى فى الأصل الى جنس واحد ، وقد اطلق العلماء على هذا الجنس اسم الجنس الهندوجرمانى ، ولما اتسعت المقارنة بين اللغات اطلق العلماء عليه اسم الجنس الهندوأوروبى ، ثم أخيرا الجنس الآرى نسبة الى أريا التى تذكر الكتب الهندية القديمة أن أجداد الهنود قد وفدوا منه ، وتشير الى أن موقعه فى الشمال الغربى من الهند من هضبة ايران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين وقد اعتبر وفقا لذلك الموطن الأصلى للجنس الآرى[1] .

وأما الجنس السامى فقد أطلقه شلوتزر Schloezer على الشعوب التى كانت تتكلم العربية والعبرية واليمنية القديمة والبابلية والآشورية والآرامية لتشابه هذه اللغات تشابها يؤدى الى الاعتقاد بانتمائها الى فصيلة واحدة ، وقد حمل هذا على الظن بأنها ترجع الى فصيلة انسانية واحدة سميت بالسامية اقتباسا مما ورد فى سفر التكوين بصدد اولاد نوح : سام وحام ويافث . وباختلاف الفروض عن موطن «سام» اختلفت الروايات عن الموطن الاصلى للساميين[2] .

والواقع أن تقسيم البشر الى سلالات طبقا للغة ليس له أى سند صحيح . فالناس المشتركون فى لغة ما أو ثقافة ما ليسوا بالضرورة منحدرين من أصل واحد أو أصول متقاربة ، فاللغة تنتقل من شعب الى شعب آخر أحيانا بطريق الغزو أو القهر ، فطالما فرض الفاتحون لغتهم فرضا على المغلوبين ، ومن أمثلة ذلك اللغة التركية التى فرضها

(١) هناك آراء مختلفة بصدد الموطن الاصلى ومنها أنهم نشأوا على ضفاف بحر البلطيق ، وقد اقتصرنا هنا على أهم الآراء التى تذهب الى أن العنصر الآرى قد انقسم منذ القرن ٣٠ أو ٢٠ ق.م. الى شعبتين رئيسيتين : شعبة شرقية (الهند وايران) وشعبة غربية فى أوروبا .

(٢) Renan : Histoire Generale des Langues Semitiques p. 43.

آل عثمان على سكان شبه جزيرة الاناضول الذين كانوا يتحدثون الاغريقية قبل الغزو العثمانى ، والذين يتعدون بعداً تاما عن السلالة الكبرى التى ينتمى اليها الأتراك الغزاة ، واللغة الاسبانية واللغة البرتغالية التى يتحدث بها عدد كبير من سكان أمريكا الجنوبية .

فظاهرة انتشار اللغة بالفتح ظاهرة تاريخية هامة ، وأحيانا يقتبس الغزاة لغة الشعب المغلوب على أمره ، فالغزاة النورمان تحدثوا الفرنسية فى فرنسا ثم تبنوا الانجليزية فى بريطانيا .

هذا الى أن كثيرا من الكتاب يستعملون تعابير مختلفة فى الاشارة الى الأمم والشعوب والقوميات ، فيقولون : الكلت والجرمان والهنود والعرب والانجليز والفرنسيين ، للدلالة على أن شعبا أو اكثر يرتبط بعضهم بالبعض برباط التاريخ والتقاليد المشتركة واللغة ، وأحيانا الدين ، والجوار الجغرافى ، أو يربط بعضهم والبعض الآخر بالتقارب الحضارى والثقافى ، ويشتركون فى آمال وآمان واحدة بغض النظر عن أصولهم السلالية ، فالانسان حيوان فريد يمتاز بقدرته على نقل تجاربه وخبراته عن طريق التقليد ، دون أن يكون لها أى علاقة بالعوامل الوراثية الحيوية ، وكل ما يترتب على ذلك من نتائج ، واللغة والعادات والتقاليد والآراء كلها أمور سائلة تنتقل من شعب الى شعب بوسائلها الخاصة ولا يصح أن تتخذ دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد ، وفى معرض الاشارة بالجنس النقى نجد الكونت جوبينو Gobineau قدر أن الجنس الجرمانى هو اكثر الشعوب نقاوة ، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة من الجنس الآرى وهو يمتاز عن الأجناس اللاتينية التى لم تعد بعد أجناسا نقية وخاصة بعد أن امتزجت بالشعوب السامية والأجناس الزنجية المنحطة ؛ من ذلك العرض يتضح لنا أن بعض العلماء قد خلطوا بين الجنس واللغة ، فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الحامى أو الجنس السامى .

فمن الخطأ أن نتحدث عن السلالة الآرية أو السلالة السامية أو السلالة الحامية ، فهذه كلها مجموعات من البشر تتفق فى أنها تتحدث لهجات أو لغات مشتقة من أصول أو عائلات لغوية واحدة ، وقد ينطوى تحت العائلة اللغوية الواحدة ، بل أحيانا تحت

اللغة الواحدة ، سلالات عديدة ، قد يربط بينها رباط الأصل المشترك ، وقد ينعدم هذا الرباط ، فالعائلة اللغوية الآرية مثلا يتحدث بها الاسبانيون جميعا فيما عدا اللاب فى أقصى شمال اسكندناوة والباسك فى الحدود الفرنسية الاسبانية من ناحية الغرب ، وفيما عدا البلغاريين والهنغاريين والمجموعات التركية جنوب روسيا فى تركيا نفسها ، كما أن اللغات الفارسية والافغانية والهندية من نفس العائلة اللغوية ومن ثم كانت تسميتها باللغات « الهندو أوروبية » هذا بالرغم من السلالات الفرعية العديدة التى يتكون منها الناطقون بلغات هذه المجموعة — ليس هذا فحسب ، بل ان التقارب من ناحية السلالة بين بعض الناطقين باللغات «الهندو أو روبية» والناطقين باحدى اللغات الآرية الفنية اكبر من التقارب السلالى بين الناطقين باللغات «الهندو أوروبية » بعضهم والبعض الآخر .

كذلك الحال فيما يختص باللغات السامية اذ أن هناك تنوعات سلالية بين العرب الشماليين (طوال الرأس)والعرب الجنوبيين (عراض الرأس) ، كما أن اللغة العبرية القديمة تحدث بها بنو اسرائيل وخلفاؤهم فيما بعد وفيهم من يرجع الى الأصل الأرمنى. هذا الى وجود بعض عناصر هندية أوربية قديمةفى الهلال الخصيب مواطن الممالك السابقة القديمة فى بابل وآشور وأرض كنعان ، فان انتشار العرب المسلمين قد حمل اللغة العربية وفرضها فرضا على البلاد المفتوحة فى مصر وشمال افريقية مما أخرج تعبير العرب عن المعنى الاثنولوجى الى المعنى الثقافى واللغوى .

ولقد باعدت اللغة بين الشعوب الأقرب رحما لأنها حاجز ثقافى كبير فأصبح الاثيوبيون أبعد عن جيرانهم من الصومال الحاميين الشرقيين ، بالرغم من القرابة العنصرية الكبيرة التى تربطهم .

ففى رأى (آرثر كيث) لا يقل حاجز اللغة فى فصل الجماعات بعضها عن البعض خطرا عن الحواجز الفيزيقية ، فهى فاصل كبير بين الشعوب لأنها وسيلة التفاهم بين الأفراد داخل الشعب الواحد ، أو الجماعة الواحدة ولكنها بالرغم من ذلك أمر سهل يصبح بالاختلاط والتقليد ، أو بالقهر والغزو تراثا مشاعا بين جماعات تختلف بعضها عن البعض فى الصفات الجسمية ، وربما كانت تتحدث لغة واحدة ، منعزلة عن غيرها ، مقتصرة على التزاوج فيما بينها ، وقد عملت بحكم توارث الصفات

العامة المشتركة بين أفرادها على ابراز صفات خاصة بها ، وبهذا كونت سلالةمتميزة، ولكن مثل هذا الغرض لا ينطبق الا على الجماعة اللغوية وهى فى دور التكوين فى مرحلة معينة من تاريخها ، ويؤيد ذلك ما تواتر فى كتب اليونان القديمة من صفات امتاز بها الاوروبيون القدماء وارتباط صفات الشقرة بالشعوب الناطقة بالهندأوربية بين شعوب لا تتصف بالشقرة .

وفى الوقت الحاضر نجد أن الشعوب التى تتحدث لغات حامية فى افريقية تكاد تكون متجانسة فى صفاتها الجسمية ، ولكن هذا لا يشفع مطلقا فى اطلاق هذا التعبير اللغوى على معنى سلالى ، كما أننا نلاحظ أن بعض الجماعات قد تركت لغتها الحامية وتحدثت بالعربية وهى لغة سامية مثل المصريين ومثل بعض بربر شمال افريقية .

مما سبق تتضح لنا العلاقة بين الجنس واللغة التى استعملت خطأ فى تقسيم البشر الى سلالات والتى اتضح منها أنه لا يصح أن تتخذ اللغة دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد .

تاسعا : وفى ألمانيا برزت فكرة التفوق العنصرى بشكل واضح وبصورة تحيزية قومية فى الفلسفة الاجتماعية للعلامة الألمانى هردر[1] Herder فهو يعتقد أن الاجناس البشرية ليست متساوية فى استعدادها للتحضر ، فاذا كانت الأجناس تتمايز فيما بينها فى تركيبها الفيزيقى فانها تتفاوت كذلك فى مدى التأثر بمظاهر المدنية وفى تمثلها لمقومات الحضارة ، وعلى هذا الأساس يذهب هردر الى أن هناك أجناسا بشرية خلقت للرقى وأخرى قضى عليها بالتأخر والانحطاط ، بل ان الاجناس المتخلفة فى مضمار الحضارة يجب أن تظل كذلك لأنها ليست أهلا للرقى : وقد حاول هردر أن يفسر التاريخ تفسيرا عنصريا : فالامبر اطورية القديمة انما تم لها السيطرة على الشعوب الأخرى المتخلفة لتحقق الصفات الحضارية فى عناصرها ، فقديما تحقق التفوق العنصرى فى الشعب المصرى ثم خلفه الشعب اليونانى فالرومانى فالجرمانى، ويعتبر الجرمان الآرى أرقى الشعوب وأسماها فى العصر الحديث ، بل اليه يرجع الفضل فى كل اصلاح دينى أو سياسى (بانقاذ الوعى القومى) وجميع مظاهر الحضارة

(١) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

الحديثة ترجع فى نظره الى الحضارة الجرمانية المسيحية، وقصارى القول انتعصبهلقوميته أداه الى تعصب لما يسميه بالجنس الآرى والى تغيير حقائق التاريخ والى الخروج عن المنطق السليم : الى أن يبرز بذور العداوة بين الشعب الألمانى والشعوب الأخرى ولا سيما الشعب الفرنسى الذى وصفه بالانحطاط والشيخوخة[1] .

وقد احتضنت المدرسة الألمانية نظرية السيادة العنصرية للجنس الجرمانى ، ورتبت عليها من الناحية السياسية ضرورة قهر الشعوب المنحطة ، بما ينجم عنه من توسع وغزو وحروب طاحنة ، وقد بذر هيجل وفخته Fichte بذور هذه الفلسفة فى الشعب الالمانى ، فاعتنق هيجل نظرية الارتقاء وبقاء الأصلح ، وطبقها فخته على الجنس الجرمانى باعتباره الجنس المختار وأنه الجدير بالخلود والبقاء ، ولم يكن فخته يدعو الى بقاء الجنس الالمانى بقدر ما يدعو الى بقاء وخلود الثقافة والحضارة الجرمانية ، ومن ثم كان على الشعب الالمانى أن يحمل لواء التقدم والحضارة العالمية ولو بالقوة والعنف . وتولد عن هذه الاتجاهات نزعة قومية تعصبية أشعلتها حماسة كتابات كل من فردريك شليجل Friedrick Schlegel وليست List[2] وقد غذى هذا التيار موسيقى الفنان الالمانى ڤاجنر[2] Richard Wagner اذ أنه أشعل الالمان حماسة للتوسع والغزو والاشادة بنقاوة عنصرهم وحفزهم الى التخلص من اليهود الدخلاء الساميين الذين هم أساس التخلف والانهيار لكل حضارة ، وليس عجبا ان يصبح زوج ابنته[3] الكاتب الانجليزى الالمانى تشامبرلين Houston Stewart Chamberlain من أشد غلاة نظرية التفوق العنصرى ، فقد حاول فى كتابه عن دعائم القرن التاسع عشر ان يثبت أن العنصر الجرمانى هو الذى انشأ الحضارة الأوروبية ، وأن انهيار الحضارات القديمة ، وخصوصا حضارتى الاغريق والرومان، انما مرجعه الى امتزاج الأجناس التى انشأت هذه الحضارات باجناس غريبة عنها ، وخلص الىأن مصير الحضارة الانسانية منوط بمحافظة الجرمانعلى نقاوةعنصرهم. وقد قسم الأجناس البشرية من حيث أثرها الحضرى الى قسمين كبيرين : أجناس

(١) Beracha : Le Mythe de Racisme, Paris 1945.
(٢) Wilis Weatherford : Race Relations, p. 16.
Dr. H.A. Miller : The Jew & His Music (Wagner).
(٣) H.S. Chamberlain : The Foundations of the 19th Century, 1910.

منشئة وفى صدارتها الاجناس المختارة Elite وعلى رأسها الجنس الجرمانى ، وأجناس هادمة بطبعها وعلى رأسها اليهود والزنوج ، وانتهى من هذا الى أنه يجب أن تكون السيادة فى العالم للاجناس الممتازة وعلى قمتها العنصر الجرمانى .

وقد تبنت النازية الألمانية آراء تشمبرلين هذه واتخذتها أساسا لسياستها العنصرية فى تطهير البلاد والعنصر الألمانى ، فنصت المادة الرابعة من برنامج الحزب الاشتراكى أنه لا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألمانى مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء فى الأمة الألمانية . واذن فليس ليهودى ان يكون عضوا فيها . على أن النازية لم تقف عند حد العمل على سحق اليهودية فى ألمانيا ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فى الاشادة بتفوق السلالة النوردية الشمالية متبنية آراء برادلى[1] R.N. Bradely عن التفوق العنصرى لهذه السلالة (The Superior Nordic Race) وقد شاع استعمال الجنس أو العنصر التيتونى لهذه المجموعة البشرية ، وذلك نسبة الى اللغة التيوتونية التى يتكلم بها سكان المانيا والسويد والنرويج والدنمرك وهولندا والنصف الشمالى من بلجيكا (V. Teutonism) ، وقد تمادت النازية فى غلوائها فذهبت الى تصوير اليهود على أنهم أشد الأجناس هدما للحضارة[2] ، وأن الحضارات لا تفنى أو تهدم الا عندما يمتزج الجنس الآرى المنشىء لكل مدنية بالاجناس الوضيعة ، بل ان تاريخ الامم الآرية يدل على أنها تنحط وتتدهور كلما انحرفت عن مبدأ نقاوة الجنس وامتزجت بالاجناس المقهورة ، وتذهب النازية الى أبعد مدى بمناداتها بتفوق الجنس الآرى على جميع الاجناس الاخرى وليس على السلالة اليهودية وحدها . . . وترى أن الاجناس غير الآرية كلها أجناس منحطة : فشعوب البحر الأبيض والشعوب السامية والشرقية بوجه عام شعوب منحطة يجب أن يستعبدها الجنس الآرى ، ويجب أن يحرص على نقائه وعدم الامتزاج بها ، فالنازية بهذا المعنى تحمل فى ثناياها الزعم بأن العنصر الجرمانى هو الشعب السيد والجنس المختار Herrenvolk ، كما أنها تتصل بروحها بصلة وثيقة بفلسفة القوة والسيادة التى ذاعت فى المانيا خلال القرن التاسع عشر ، والتى حمل لواءها بالأخص

(1) R.N. Bradely : Racial Origins of English Character P. 87.
(2) Frank - H. Hankins : The Racial Basis of Civilization
Ginsberg : Anti-Semitism.

فردريك نيتشه . فالبشر فى نظره صنفان : الأسياد والعبيد ، أو الصفوة والدهماء ، وأن الخير لا يتحقق للانسانية الا اذا قام بين الشعوب جنس يمتاز بالقوة والتفوق والسيادة Uebermensch[1] يمثله الانسان الكامل المتفوق Superman.

هذا وقد نوه كثير من العلماء والكتاب امثال جنزبرج Ginsberg وريموند فيرث Raymond Firth ببطلان النظرية النازية القائمة على الزعم بتفوق السلالة الآرية أو العنصر النوردى ، أو اعتبارها منشئة للحضارات الانسانية ، فالتاريخ لم يرو لنا أن البلاد الشمالية قد شهدت حضارة عريقة كالتى ازدهرت فى الشرق الأدنى والأوسط فى الصين ومصر وبحر ايجه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة والأوسط فى الصين ومصر وبحر ايجه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة وفرنسا وبريطانيا والمانيا وامريكا وروسيا ، وكل تلك امم توجد فيها اجناس مختلطة بكثرة. هذا الى أن مغالاة النازية فى التحقير من شأن السلالات الأخرى ليس له ما يبرره من الناحية النظرية أو الواقعية ، ويبدو أن الاجراءات الاستثنائية التى اتبعتها النازية فى اضطهادها للسلالات الاخرى مما يمكن أن تفسر فى ضوء التعليل السيكولوجى الاجتماعى لظاهرة العدوان والتعصب ، والتمييز الجماعى الذى تلجأ اليه الجماعات التى تعانى من القلق الاجتماعى لتعيد الى كيانها الاستقرار ، وذلك بأن تصرف نقمة الجماهير عن النقائص الحقيقية فى الهيكل الاجتماعى وتحولها وجهة محدودة وخاصة . وقد كان هذا هو شأن المجتمع الالمانى[1] ، اذ كان معظم افراد الأمة الالمانية يشعرون قبيل الحكم النازى بالمرارة ، مما ادى الى وجود نوع من الشقاق والتنابذ الذى ينذر بقيام ثورة داخلية أو حرب أهلية تفضى الى تقويض المجتمع الألمانى ، فكان على النازيين أن يحولوا شعور النقمة الى متنفس يلتمسون فيه ملاذا من تلك النقمة الجماعية التى كانت تهدد كيان المجتمع الالمانى ، وبذلك تهيأ للحكم النازى نوع من الاستقرار . هذا ويرى بعض النقاد أن النازية رأت ان تستظل بلواء النظرية العنصرية فى اضطهادها لليهود ، ولكن البواعث الحقيقية كانت سياسية واقتصادية قبل كل شىء .

والآن يجدر بنا أن نتساءل من الناحية الموضوعية العلمية ، عما اذا كانت هناك

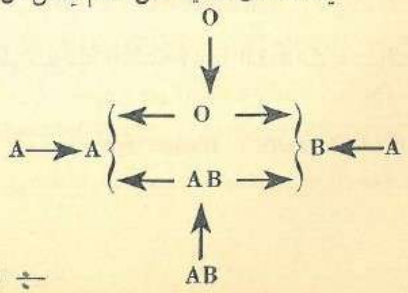
(1) Raymond Firth : Human Types.

ثمت قاعدة حقيقية ، يقاس بها تفوق جنس على جنس آخر ، استنادا الى الدعائم الاساسية التي يذكرها دعاة التفرقة العنصرية ، أعنى بها التفوق فى الدم والذكاء والثقافة •

ففيما يتعلق بتفوق الدم ، أجرى بعض علماء الانثروبولوجيا تجارب تقوم على تحليل عينات من السلالات البشرية ، بقصد استنباط المجموعات الدموية التى تنتمى اليها • وقد نشر دان L.C. Dunn [1] مؤلفا صغيرا عن علاقة الجنس بعلم الحياة لخص فيه جهود العلماء فى هذا الصدد ، ويكفى هنا أن نشير الى نسبة انتماء بعض الشعوب الى الفصائل الدموية المعروفة (O, A, B, AB) على النحو المبين فى الآتى :ـ

اسم الشعب	نوع فصيلة الدم			
	O	A	B	AB
الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية	٩١	٧	٢	صفر
الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية	٩٨،٥	١،٥	صفر	صفر
السكان الاصليين فى غرب استراليا	٤٨،١	٥١،٩	صفر	صفر
السكان الاصليين فى شرق استراليا	٥٨،٦	٣٧،٨	٣،٦	صفر
الانجليز	٤٧،٩	٤٢،٤	٨،٣	١،٤
السويديون	٣٧،٩	٤٦،١	٩،٥	٦،٥
الروس	٣١،٩	٣٤،٤	٢٤،٩	٨،٨
اليابان	٣٠،١	٣٨،٤	٢١،٩	٩،٧
الصين	٣٤،٢	٣٠،٨	٢٧،٧	٧،٣

يلاحظ ان عملية نقل الدم يمكن أن تتم حسب ما هو مبين بالرسم الآتى :ـ



ومن الواضح أن هذه الفصائل الدموية لا تعطى دلائل تفوق عنصرى وانما قد تدل على توحد أو تقارب الاصول السلالية ، ومدى العزلة الجغرافية أو الحضارية للجماعات البشرية ، وهى تخدم أغراضا حيوية اكثر منها دلالات عنصرية ، وخاصة فى مجال نقل الدم من شخص لآخر اذ يجب ملاحظة أن هذه العينات قد تتمثل باكملها فى شعب واحد ، أن الفرد الذى دمه من نوع (O) يستطيع أن يعطى دمه لأى شخص آخر ، بينما لا يستطيع شخص من نوع (AB) اعطاء دمه الا الى شخص ينتمى الى نفس المجموعة أى (AB)

أما فيما يتعلق بتفاوت الاجناس فى ذكائها وفقا لتفاوتها فى الفروق التشريحية الفسيولوجيا ـ وخاصة فى معدلات حجم الجمجمة وتلافيف المخ ووزنه ، فقد ذهب فريق من العلماء الى تأكيد الصلة بين الفوارق الفيزيقية والتفاوت فى الملكات الذهنية والقدرات العقلية والاستعدادات النفسية • فوضع مارتن Rudolf Martin عام ١٩١٤ لوحة هامة ، وضح فيها معدلات حجم الجماجم عند بعض السلالات المختلفة على النحو الآتى :ـ

الشعوب والقبائل	رجال	نساء
الأوروبيون وسكان جزر المحيطين، الهادى والاطلسى	١٤٥٠ سم٣	١٣٠٠ سم٣
الاستراليون الاصليون	١٣٤٧ سم٣	١١٨١ سم٣
القيرا	١٢٥٠سم٣	١١٣٩ سم٣
الاندمانيون	١٢٨٠ سم٣	١١٤٨ سم٣

بملاحظة التفاوت بين معدل حجم الجمجمة فى شعوب أوروبا من جهة ومعدل حجم جماجم بعض الأقوام المتأخرة استنتج انه لا بد وان تكون هناك صلة بين حجم الجمجمة والمقدرة العقلية •

واذا نحن سلمنا بهذه الارقام ، واخذنا بعين الاعتبار وجود صلة مباشرة بين حجم جمجمة الرأس والذكاء فمن الممكن أو المحتمل أن نسلم بتفوق الجنس الأروبى ، غير أننا لو وسعنا دائرة الاستدلال ، ودققنا فى الجداول التى وضعها كثير من العلماء

بخصوص معدل أحجام بعض الشعوب المتأخرة فربما انتهينا الى نتيجة مخالفة كما يتضح ذلك من الجداول الآتية :ـ

الشعوب	معدل سعة الجمجمة
اليابانيون	١٤٨٥
العرب	١٤٧٤
الصينيون	١٤٥٦

القبائل		معدل سعة الجمجمة
قبائل الآما	Ama	١٥٧٠
الاسكيمو		١٥٦٣
الكافر	Kafir	١٥٤٠
اقزام افريقيا الوسطى		١٦٠٠

وفى ضوء هذا يتبين لنا أن الأرقام الدالة على حجم الجمجمة عند القبائل المتخلفة فى الحضارة أعلى منها عند الاوروبيين مما ينهض دليلا على دحض آراء مارتن •

ومن أولى المحاولات العلمية لاثبات التفاوت العنصرى ،ما أجراه العالمان جوردن Gordon وفينت Vint بقصد مقارنة نمو الدماغ ووزن المخ بين الجماعات البدائية الافريقية والشعوب الاوروبية • فقد انتهى الاول الى أن متوسط النمو فى دماغ الافريقى الذى يقع سنه ما بين ١٠ ــ ٢٠ ، هو نصف متوسط النمو لدماغ الفرد الاوروبى فى نفس السن • وقد رتب على ذلك أن نظم التعليم الاوروبى لا يجب تطبيقها فى شرق افريقيا لأنها لا تأتى ثمارها المرجوة هناك • واستخلص فينت أن متوسط وزن المخ بين الشعوب الافريقية أقل ١٠٤٦٪ منه عند الاوروبيين وان هناك ثمة صلة بين المخ وذكاء الجنس •

ومن ناحية اخرى حاول العالم الفرنسى توبينار[1] Paul Topinard أن يضع لوحة يبين فيها معدلات زنة المخ فى بعض الاقوام والشعوب كما هو مبين على النحو الآتى :ـ

الصينيون	١٤٢٨ صم
اليابانيون	١٣٦٧ صم
الاوروبيون	١٣٦١ صم
زنوج أمريكا الشمالية	١٣١٦ صم

(١) Morris Ginsberg : Sociology, P. 64. Paul Topinard

والمدقق فى تلك البيانات ، يلمس أن لا صلة مطلقا بين معدل وزن المخ ، ومستوى الذكاء فى الجنس أو المستوى الحضارى له • ومما ينبغى الاشارة اليه ان هذه المقاييس لشعوب لا لأجناس ، وهذه الشعوب لا تتكون من سلالات نقية بحيث يمكن اعتبارها عينات يمكن الاستدلال بها أو القياس عليها ، فضلا عن أن هذه المعدلات أخذت من اعداد محدودة لا تكاد تفى بغرض المنهج الاستقرائى العلمى • وهى مع ذلك لا تعزز آراء المدافعين عن التفاوت العنصرى •

وقد اتجه بعض العلماء الى التدليل على سمو الجنس بنسبة النابغين فيه الذين يبلغون الحدود العليا للمقدرة أو الكفاية الذهنية "The Upper Limits of Ability" والواقع أن بلوغ هذا الحد ليس وقفا على سلالة معينة كما دلت ابحاث كل من ويتى Witty وجنكنز[1] Jenkins

ولقد أثيرت اعتراضات فنية على قيمة تلك البحوث من الناحية العلمية • ويهمنا فى هذا المجال أن نشير الى جهود بعض العلماء فى محاولة الربط بين الميدان التشريحى والميدان السيكولوجى والميدان الثقافى فى دراسة دلالات السلالات البشرية ، ومن بين هذه المحاولات ما قام به كل من شلشير Shell chear وكانجهام Cunigham وكابر Kapper • فعلل الأول صغر حجم أدمغة بعض السلالات بعدم اكتمال نموها نظرا لظروف بيئية واجتماعية وثقافية ، بل يذهب الى أن نموها قد يبرز امكانيات لقدرات عقلية تفوق السلالات التى تدعى لنفسها السمو • ويرى الآخران أن المشكلة تتصل بمعدل التطور أو النمو الفيزيقى والعقلى بين أفراد الأجناس المختلفة ، فالأطفال فى الجماعات المتأخرة ينمون بسرعة اكبر من أطفال الشعوب الأوروبية ، وعلى ذلك يقف نمو عظام الجمجمة قبل أن يستكمل المخ المراكز اللازمة للنمو العقلى لأن استغلاق الجمجمة يحول دون نمو المخ •

هذه المحاولات وما اليها قد تفسر طبيعة الصلة بين التباين العضوى الوظيفى اكثر من تفسيرها للتفاوت بين الملكات العقلية تبعا لتفاوت السلالات[2] •

(١) Witty & Jenkins : The Journal of Social Pschology 1935
Otto Klinberg : Race & Pschology 1951 (Unesco)

(٢) ومما يدعو الى عدم التسليم بنتائج تلك المحاولات انه اذا اضبطت النسبة بين حجم الجسم وحجم الجمجمة وبين زنة الجسم وزنة المخ تضاءلت هذه الفروق السطحية ولم يعد لها دلالة يقينية •

وقصارى القول أن هذه الاعتبارات لا تنهض دليلا على تفوق سلالة على أخرى ، ومن الخير أن نقف موقف العالمين الأمريكيين كروبر[1] A.L. Kroeber وفرانز بواس[2] Franz Boas ، فانهما رغم تسليمهما بان الاختلافات التشريحية لا بد وأن ينجم عنها فوارق فسيولوجية سواء فى الوظائف العضوية أو فى الصفات النفسية ، الا أن هذا لا يستلزم بالضرورة القول بتفوق جنس على جنس آخر ، فى أى من الملكات العقلية .

واذ تبين لنا أن جهود علماء التشريح فى قياس حجم الجمجمة وفى وزن المخ أو ملاحظة دقة تلافيفه ، تقصر عن أن تزودنا بدلالات عن التفاوت فى الملكات العقلية والصفات النفسية للسلالات البشرية ، فلنول وجهنا شطر ميدان علم النفس التجريبى

والواقع ان علماء الانثروبولوجيا قد استعانوا بالاختبارات المستخدمة فى تجارب علم النفس الفردى ، لقياس القدرات العقلية كالقدرة على التذكر والتصور والابتداع والذكاء ، والمهارات الفنية فى الموسيقى أو الرسم أو الهوايات ، كما استعانوا بما يستخدمه علم النفس فى قياس الاحساس بالالم وبالتعب ، وفى تحديد سمات الشخصية من ناحية المزاج والطبع Temprament ، وحاول الكثير من علماء الانسان تطبيق هذه الاختبارات على بعض الشعوب بغية دراسة الاختلاف المفروض بين الأجناس فى الذكاء والادراك والحساسية ، ولمعرفة ما اذا كان التفاوت أصيلا أم طارئا ، وعما اذا كان هذا التفاوت يرجع الى عامل المورثات السلالية أو الى عامل البيئة الاجتماعية .

وفى مقدمة هؤلاء العلماء وودورث L.C. Presey Woodworth وكلينبرج Klinberg . وتدل أبحاث هؤلاء بصفة عامة على أن نتائج هذه الاختبارات تتأثر بالوسط الاجتماعى وبالتقاليد والعادات وبمفاهيم اللغة ، فلا بد أن يكون للاسئلة المستخدمة معنى اجتماعيا فى نظر الشخص، كما أن موقف الجماعة تجاه الاسئلة يؤثر

(١) A.L. Kroeber : Social Antropology 1934, 1938.
(٢) Franz Boas : The Mind of Primitive Man, 1911.
(٣) Morris Ginsberg : The Study of Society, P. 184.

الى حد كبير فى نتائج الاختبارات ، هذا فضلا عن طبيعة الحياة الاجتماعية من ناحية كونها بدوية أو ريفية أو مدنية [1].

وقد أوضح العلامة كلينبرج استاذ علم النفس فى جامعة كولومبيا أن الاختلافات فى مستويات الذكاء تفسر جميعها بعوامل تتعلق بالبيئة والمحيط الاجتماعى ولا يمكن ارجاعها الى تنوعات وراثية سلالية .

وقد اعتاد كثير من المفكرين أن يميزوا بين الاجناس فى السجايا والطباع ، وان يخصوا بعض السلالات بصفات معينة ، فيعتقد الكثير أن الشعوب المتأخرة تفوق الشعوب المتحضرة مثلا بالقدرة على تعرف الأجسام والأصوات من مسافات بعيدة ، ولكن الاختبارات العلمية تفيد أن هذا التفوق لا يرجع الى قدرات أفضل ولكن يرجع الى الانتباه الى بعض الموضوعات التى يهملها الرجل الابيض . وما قيل فى تمييز الاجسام والصوت قد ينطبق على ما يقال عن حاستى الشم واللمس ، فان الاعتقاد السائد هو أن هناك فروقا طفيفة فى هاتين الحاستين بين القبائل المتأخرة والمجتمعات المتحضرة مع أنه لم يتحقق شىء بصفة جدية .

وقد وجد بعض الباحثين أن عتبة الألم ترتفع بين البدائيين عنها بين المتمدينين ويقصد بذلك أن الأول يتحمل ضغط آلة مدة أطول من الثانى قبل أن يشعر بالألم ، ويرى البعض أن الرجل الأبيض يشعر بألم وخزة بينما يتحمل البدائى الضغط حتى يؤلمه ، ويرجع هذا الى طبيعة الحياة الاجتماعية التى يحياها كل منهما ، فالمتحضر قد انشىء تنشئة اجتماعية تعتمد أساسا على الحرية الفردية وعدم احتمال الضيم والألم، بينما ترتكز الحياة البدائية على الصبر واحتمال الألم ، ومن أظهر الأمور السائدة عندهم أن الفرد لا يقبل فى الحياة الاجتماعية الا اذا اجتاز عدة تجارب قاسية Ordeals تثبت مدى تحمله للألم .

والواقع أن هذه الموضوعات تعود بنا الى صعوبة التمييز بين العوامل الاجتماعية والعوامل النفسية أى التأكد من أن الذى قيس بالفعل هو نقص العمليات العقلية وليس مجرد طريقة للسلوك تعود الشخص على أدائها .

(١) L.C. Presey : Art. in The Journal of Applied Psychology 1933.
Otto Klinberg : Opt. Cit.

وقد اجرى عدد كبير من الاختبارات التجريبيه لقياس الذكاء النسبى للأجناس المختلفة ، وهنا تعترضنا صعوبة ، ألا وهى : ماذا يعنى بالذكاء ؟

أجمع كثير من العلماء على ان ليس هناك صفة عقلية محدودة اسمها الذكـاء ، ولكن هناك عدد من القدرات الخاصة .

ووجهة نظر بعض العلماء الانجليز وعلى الاخص سبيرمان Spearman هو أنه وجد مظهر عام للعقل يسمى بالذكاء ، وبمعنى اكثر تفصيلا ، عرف الذكاء بانه المقدرة على التعلم واستخدام هذا التعلم فى مواقف جديدة .

ولكى نقارن ذكاء الأجناس المختلفة من الضرورى أن ندرس مجموعات كبيرة من كل منها ، كما أنه من الضرورى أن يراعى فى الاختبارات المستعملة ظروف كل بيئة حتى لا يعوقها اختلاف طرق المعيشة فى البيئات المختلفة . وهناك عدة طرق لقياس الذكاء النسبى . غير أنه يوجد اتجاهان رئيسيان بين علماء النفس ، الاتجاه الأول يمثله هؤلاء الذين يستخدمون اللغة اللفظية فى اختباراتهم ، والاتجاه الثانى يقوم على أساس تجنب استعمال اللغة والاقتصار على التصرفات ال Performance Test

وأهم اختبارات النـوع الاول اختبـار بنيت سيمون Binet-Simon الذى عدله فيما بعد ترمان Terman . وهذه الاختبارات اللفظية تتطلب صياغـة الأسئلة بطريقة تمكننا بقدر المستطاع ان نستبعد نتائج التعلم وبحيث تقلل الاختلافات البيئية الى أصغر عامل مستطاع[1] .

وقد طبق عدد من هذه الاختبارات على البيض والصينيين واليابانيين والمكسيكيين وهنود أمريكا وقبائل الزنوج فى شمال وجنوب الولايات المتحدة . ومن نتائج هذه الاختبارات أن البيض على رأس القائمة فى الذكاء يليهم مباشرة الصينيون واليابانيون ثم أخيرا الجماعات الاخرى . ويجدر بنا أن نتساءل : هل تعتبر هذه النتائج دلالـة على المقدرة النسبية للعقل ؟ توجد أسباب تدعو للقول بأنها ليست كذلك ، فمـا عدا عدم التأكد من أن لقوة اللغة نفس التأثير على الجماعات المختلفة ، فلم يستبعد

(١) ومن هذه الاسئلة مجموعة لمتوسط اعمار الافراد ، فمثلا الطفل الذى يجيب على مجموعة الأسئلة التى يجب عليها عادة أطفال أكبر منه يقل على هذا الطفل أن له العمر العقلى لهؤلاء الاطفال الكبار ، أى أن عمره العقلى أكبر من عمره الفعلى .
Raymond Firth : Human Types, P. 35.
L.C. Pressey : Art in The Journal of Applied Pschology, 1933.

تماما تأثير اختلاف الأنماط الثقافية ، وعلاوة على ذلك فمن المحتمل اختلاف الحياة الاجتماعية حيث هذه الجماعات لم تمكن الاختبارات من أن تستنتج مقارنة عادلة . وعندئذ فهذه النسب مضللة اذا أثبتنا بها أن قبائل الزنوج والهنود أقل ذكاء من الرجل الأبيض . وفى الجماعات السالفة الذكر أحرز الأفراد مكانة عالية مثل الرجل الأبيض وأعلى من مستواه .

وبعد بحث دقيق فى نتائج عدد كبير من هذه الاختبارات يصل جارث Garth وهو عالم أمريكى فى علم النفس التجريبى ، يصل الى أن الاختلافات فى الذكـاء الموجودة بين الاجناس يمكن ارجاعها الى تأثير التربية والانتخاب الطبيعى . وذلك لأن الأجناس التى يظهر من الاختبارات أنها فى مرتبة أقل من غيرها من المحتمل أنها لم تتعلم قط ، وانهم يعيشون معيشة وضيعة ، ويرجع ذلك الى مقاومتهـم للحيـاة الاجتماعية الأوروبية التى تحيط بهم ، وهذه المقاومة ــ على حد قوله ــ قد لا تكون علامة على الانحطاط ، بل على العكس من هذا . وقد ايده فى هذا العالمان هويلر وبيركنز Wheeler & Perkins

والواقع أن نتائج مثل هذه الاختبارات لا تكشف النقاب عن الذكاء الموروث فى هذه الجماعات ، بل انها غالبا ما تعكس آثار المحيط الاجتماعى والتراث الثقافى . ان أبسط اختلاف فى اللهجة أو فى اللغة التى يستخدمها العالم الممتحن عن لهجة أو لغة الشخص موضوع الاختبار ، تؤثر على نتيجة الاختبار ، خصوصـا اذا لم يكـن للمصطلحات المستعملة فى مادة الاختبار دلالات اجتماعية واضحة فى ذهن الاشخاص الممتحنين .

هذا الى أننا حينما نجرى اختبارا للذكاء لا نختبر بناء العقل ولكن عملياته ، ولا نمحص فيه أجزاء منفصلة ولكن عمليات مركبة ، ولا نعرف حتى الآن اختباراً يقيس القدرات الفطرية المحضة منعزلة عن المعرفة المكتسبة بالخبرات والتجارب التعليمية .

وحيث أننا نجهل فى وقتنا الحاضر المقاييس المتعلقة بمقارنة العمليات العقلية لمختلف الأجناس ، فلا توجد شواهد قاطعة تثبت تفاوت العقول بين الأجناس ، كما أنه لا يوجد أيضا دليل واضح على أنها متماثلة[1] .

(١) Ginsberg : The Study of Society, P. 184.

والنوع الثانى من الاختبارات لا تستخدم الألفاظ ، وهذه الاختبارات تتجنب الى حد ما الصعوبات الناشئة عن عدم اتاحة فرص التعليم للاشخاص الذين يختبرهم • ومنذ أن بطل استخدام الالفاظ والكتابة فى الاختبارات أمكن قياس سلوك الأميين وهذه الاختبارات تعرف بالاختبارات العملية• ومن الامثلة المعروفة لهذه الاختبارات اختبار لوحة اشكال جو دارد وسلفستر Goddard & Silvester واختبار متاهة بوريتس Portens Maze Tests

وهناك نقطة جديرة بالاعتبار فى هذه الاختبارات العملية ، وهى أن الاختلاف فى اللغة أو التعليم أو القراءة أو الكتابة ليس العقبة الوحيدة فى مقارنة القدرات العقلية، وهناك أيضا الاختلاف فى نوع الحياة الاجتماعية التى تربى فى كنفها هؤلاء الناس ، وهى من الأهمية بمكان بحيث لا يجب اهمالها • والذى يبدو مهما هو أن مجموعة الاختبارات التى تستخدم الصور والأشكال الهندسية هى محاولة لقياس القدرة النسبية للبدائيين فى المواقف العملية فى حياتهم اليومية أو فى المواقف التى تعتمد على خبرتهم العادية •

نحن الآن فى حالة تسمح لنا بأن نجيب على بعض الاسئلة السابقة عن الفروق فى القدرة العقلية والعمليات العقلية فى مختلف الأجناس • فمن نتائج عدد كبير جدا من الأبحاث السيكلوجية ظهر أن المقدرة العقلية والذكاء ليس فى مستوى واحد فى مختلف الأجناس ، ووجد من النتائج أنه يجب وضع البدائيين فى مرتبة أقل من المتمدينين •

ولكن مع هذا يجب ألا تعتبر هذه الاختبارات قاطعة وذلك لعدةأسباب، فمع أن مستوى الجماعات المتأخرة لم يعرف أنه واحد ، ففى كل جماعة حتى اكثرهم بدائية ظهر أفراد على مستوى عالى فى الذكاء والقدرات العقلية الأخرى فوق مستوى المتمدينين • علاوة على ذلك فالاختبارات تختلط مع الحقيقة ، وذلك لأن نوع المجتمع الذى يعيش فيه الأفراد الذين تجرى عليهم الاختبار يعين الى حد بعيد النتائج التى تحصل عليها الاختبارات ، فمثلا كيفية التفكير ، والقدرة على التذكر ، والقدرة على التصميم، وكل هذا وما اليه انمايجرى داخل اطار من الأفكاروالمواقف العملية التى تختلف من مجتمع لآخر •

ومع أن هذه الاختبارات قد يسلم بها من ناحية القيمة الاسمية ، فهى لا تمكننا من أن نربط بين الاختلاف فى العقلية وبعض المظاهر الفيزيقية كلون البشرة ولون العينين وشكل الرأس • • • الخ ، أو بينها وبين الاختلافات الوراثية، ولو أبعد تأثير الاختلافات فى التعليم والبيئة الاجتماعية ، وحتى لو فرضنا جدلا أنه يمكن عن طريقها معرفة تركيب المخ ، ووظيفته فى الأجناس المختلفة ، فسيبقى سؤال يحتاج الى اجابة شافية ، الا وهو ما اذا كنا سنتوصل عن طريق هذه الاختبارات الى نتائج كيفية أم كمية ؟

من الناحية الكيفية : من المستحيل القول بأنه يوجد هناك اختلاف فى مقدرات معينة بين الاجناس مثل المقدرة الموسيقية ، فهذه المسألة لم تبحث كما يجب •

ومن الناحية الكمية : فمن الملاحظ أن تأثير العمليات الاجتماعية على عمل العقل يمكن استبعاده من الاختبارات التى تطبق ، ولكن مع أن القواعد التجريبية ما زالت قليلة فانه يبدو من بعض الامثلة البسيطة أن الوظيفة العقلية لمختلف الاجناس متشابهة • فعقل الرجل البدائى يعمل بنفس الأساليب التى يعمل بها عقلنا • وهنا تتفق اختبارات علم النفس وتجارب علماء الانثروبولوجيا[1] •

وفى ضوء هذا يمكننا ان نناقش رأى من يفرق بين السلالات على أساس مقدرتها على انشاء حضارات ، فقد فسر البعض تفاوت السلالات فى درجات الرقى والثقافة والارتقاء الحضارى باختلافاتها فى الملكات والاستعدادات الفطرية • ولكن ما دام البحث العلمى قد هدم الأساس النظرى الذى تقوم عليه هذه النظرة فاننا لا نستبعد أن تبلغ الشعوب المتأخرة المستوى الذى وصلت اليه الشعوب المتحضرة ، وخاصة بعد أن تبينا أن سبب تخلفهم عن غيرهم لا يرجع الى اختلافهم اختلافا جوهريا عن بقية السلالات البشرية ، وانما سر تأخرهم يكمن وراء عزلتهم الاجتماعية وسطوة المستعمر وحرصه على ان يمتلك معينا لا ينضب من الثروة البشرية والعمل الرخيص•

---

(1) Stern : Outline of Anthropology, P. 55.